بسم الله الرحمن الرحيم

# دور التصوف في اصلاح المجتمع– التجربة التركية نموذجا[1]

**كمال ييلديز**[*]

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره والصلاة والسلام على مُحَمَّد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره الذي كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر وديا جيره وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره.

أما بعد

تركيا التي نعيش فيها الآن كانت في الماضي أرضا غير اسلامية مثل سائر البلاد الاسلامية, فتركيا هي وريثة الدولة العثمانية , والدولة العثمانية هي وريثة الدولة السلجوقية, وقد تمكن علماء الصوفية من تربية الناس وتعليمهم على الطريقة الصوفية فعن طريق أخلاقهم وسلوكهم عرَّفُوا الناس بالإسلام , وقد أخذ هذا مدة طويلة, وهذا معروف في تاريخ البلدان.

في البداية أحدثكم عن إحدى المدن التركية كيف اسلم أهلها وأصبحوا كنموذج يكتب عنهم التاريخ إنها مدينة طرابزون التركية.

تقع طرابزون في شمال شرق تركيا على ساحل البحر الأسود, وقد كانت هذه المدينة عاصمة للإمبراطورية الرومية بزعامة Pontus. وفي تلك الفترة كان عدد سكانها حوالي خمسة آلاف شخص .

كان المسيحيون من أهالي هذه المدينة يعيشون داخل المدينة في القلاع وكان هناك تلة قريبة من هذه القلاع تعرف باسم Boztepe ,وفي هذه التلة يوجد مسجد ومقبرة . وكان في هذه المقبرة قبر للمرشد Ahi Evran Dede

[1] Bu yazı, Sudan'da bulunan Hartum Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Ulumu'l-İslamiye Bölümü tarafından 2014 senesinde tertip edilen bir konferansta yazar tarafından dinleyicilere sunulmuş olan konuşmanın metin haline getirilmiş şeklidir.

[*] Prof. Dr., Marmara Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, İslam Hukuku Anabilim Dalı Öğretim Üyesi

قد فتح هذه المدينة الفاتح سلطان مُحَمَّد سنة 1461م ,وقبل الفتح بمائة عام او اكثر توفي هذا المرشد رحمه الله , والإسلام قد دخل هذه المدينة عن طريق تربية الصوفية قبل الفتح[2] , وكان المرشد Ahi Evran Dede رحمه الله من الذين جاؤا هذه المدينة.

وقد أتى مريدوه إلى أطراف المدينة وتمكنوا من العيش فيها ,ثم تعارف النصارى بالمسلمين خلال تلك السنوات من قبل الفتح عن طريق حسن الجوار والمعاملة في البيع والشراء فعرفوا الإسلام عن طريق أخلاق المسلمين الذين مثلوا الإسلام خير تمثيل , وهكذا تمكن الإسلام فعليا من دخول هذه المدينة.

ولما وصل جيش السلطان مُحَمَّد إلى أطراف المدينة اتفق مع أميرها على تسليم المدينة وخروج مائتين وخمسين أسرة من نصاراها إلى استانبول , وأسكن مائتين وخمسين أسرة من المسلمين من اهل التصوف و كان امامهم مرشدا كاملا. وهؤلاء الذين دخلوا مدينة طرابزون تعايشوا مع أهلها حيث أدى كلا منهم عبادته وفق دينه, فالمسلمون يؤدون مناسكهم في المساجد والنصارى في الكنائس من دون أي مشاكل تذكر.

وأثناء ذلك عاش الجميع ككتلة واحدة وتعارف بعضهم على بعض وعُرفت أخلاق المسلمين عن طريق المعاملات اليومية من حسن الجوار والأمانة في البيع والشراء وغير ذلك من مجالات الحياة .

وبعد خمسة وعشرين عاما من الفتح أسلمت إحدى العوائل النصرانية تعرف بعائلة الحاج قاسم , ومازالت إلى يومنا هذا تعرف هذه المنطقة باسم هذه العائلة : حي الحاج قاسم.

وقد كُتبت رسالة دكتوراه في تركيا في هذا الموضوع من قِبَل أحد الباحثين الامريكان اسمه Heath W. Lowry وقد توصل في بحثه إلى نتيجة أنه بعد مائة عام من الفتح تقريبا أصبح نصف سكان هذه المدينة مسلمين[3] نتيجة تأثر النصارى بأخلاق المسلمين ومع مرور الزمن أصبح جميع أهل هذه المدينة مسلمين من دون تعرض للإكراه من قبل أحد .

وفي الفترة العثمانية تم افتتاح المدارس الدينية والمقامات الصوفية المعروفة بالتكية في كل المدن والقرى التي تقوم بتعليم المسلمين التعاليم الدينية وفق المنهج الصحيح ؛ ليعيشوا الحياة اليومية وفق السنة النبوية ,فكل من تخرج من هذه المدارس يعتبر نموذجا يقتدى به حتى من غير المسلمين.

[2] Mustafa Kafalı, "Anadolu'nun Fethi ve Türkleşmesi", http://www.tarihtarih.com/?Syf=26&Syz=372088; Kenan İnan, "Trabzon'un Osmanlılar Tarafından Fethi", http://sbe.erciyes.edu.tr/dergi/sayi_14/09_inan.pdf.

[3] Heath W. Lowry, *Trabzon Şehrinin İslamlaşma ve Türkleşmesi (1461-1583)*,trc. Demet/Heath Lowry, Boğaziçi Üniversitesi Yayınları, 2005.

ومن هذه المدارس كنموذج فقط مدرسة تنسب الي نعمان أفندي يعرف احفاده باسم Çaykaralı Numanzadeler

كان لـ نعمان أفندي مدرسة خاصة تقوم بتعليم اللغة العربية والفارسية والتركية والعلوم الدينية والعلمية الفلكية والحساب ,وقد تناوب أبناؤه الستة عليها لمدة ثلاثمائة سنة.[4]

وما حكيناه عن النموذج في مدينة طرابزون كان ذلك في كل المدن التركية التي فتحت من قبل الدولة العثمانية في نشر التعاليم الدينية والعلمية موازاة بالتعليم الخلقي والتصوفي عن طريق المرشد حتى أصبح عادة في النظام العثماني.

وهنا سأضرب لكم نموذجا آخر يمثل العوائل التركية كيف عاشت التصوف الحقيقي وهذا النموذج من عائلتي , فأبي رحمه الله ولد في عام 1914م, وأمي التي ولدت في عام 1918م ,أثناء الفترة العثمانية حيث كانت لنا معهم ذكريات جميلة من خلال التربية السلوكية والعبادات ,فوالديا كانا يحافظان على قيام الليل وقراءة القرآن كل يوم , فوالدي منذ كان عمره ستة عشر عاما إلى أن توفاه الله تعالى عام 2004م كان مداوما على قراءة جزء من القرآن كل يوم , وعلى هذا معظم العوائل التركية في قريتي حيث كان لكل شخص مرشدا اي شيخا كاملا يستفيد من تربيته و ارشاداته.

ففي الفترة العثمانية كان رجال الصوفة وعلماؤها يديرون المدارس الدينية و التكايا عن طريق مجلس يسمى مجلس المشايخ يمثل جميع الطرق الصوفية و هذا المجلس كان يفتش التكايا والمشايخ ويزجر من خالف احواله الشريعة و سنة النبي صلي الله عليه و سلم, وفي عام 1925م كان من يعيش في استانبول ستمائة ألف شخص , ويوجد ما يقارب أربعمائة مقام صوفي يسمى تكيه , ومعني هذا لكل مرشد تكيه كان يجب عليه ان يشتغل بتربية ألف وخمسمائة شخص تقريبا, واستمر ذلك إلى عام 1925م.[5]

***إلغاء التكتيا والزاويات (المقامات الصوفية):***

صدر قانون في 30\11\ 1925 بموجبه تم إلغاء المدارس الدينية وبذلك تم إغلاق التكايا والزاويات (المقامات الصوفية) في كل مكان وفق هذا القانون وتم فرض جزاءات لمخالفي هذا القانون. ونتيجة لهذا القانون تم إغلاق مجلس المشايخ .

[4] Kemal Yıldız, **"Çaykara'lı Numanzadeler (17. ve 18. Yüzyıllarda Çaykara'nın İlmi Ve Kültürel Atmosferini Gösteren Bir Örnek)"**, *Çaykara'nın Manevî ve Kültürel Değerleri Sempozyumu 16–19 Temmuz 2002*, ss.457-467, Çaykara Müftülüğü, Trabzon 2005.

[5] Geniş bilgi için bk. Mahmud Erol Kılıç, *Anadolu'nun Ruhu*, İstanbul 2013.

ولكن لا ينسخ شيء بالقانون فقد استمر الشيوخ ومن كان عندهم من المسلمين بمداولة أعمالهم الدينية وتربية المجتمع.

وإلى الآن في تركيا كثير من الجمعيات والأوقاف الكبيرة التي تقدم خدمات اجتماعية ودينية وتربوية والتي تتبع في معظمها لمشايخ الطرق الصوفية او من يستفيد من تربيتهم.

***الخدمات التي يقدمها التصوف للإنسان في تركيا حاليا :***

كان لهم فضل الله تعالى في نشر التعاليم الدينية وفق السنة النبوية المطهرة وفهم النصوص من الكتاب والسنة وتقديم الخدمات الاجتماعية وغير ذلك[6]... والتي نذكر منها ما يلي:

1- تعليم القرآن الكريم والدين

عند اعلان الدولة التركية والغاء الخلافة العثمانية أصبح قراءة القرآن ممنوعة , وكذلك منع الأذان في المساجد باللغة العربية واستبدل باللغة التركية .

وفي ذلك الوقت تم تقديم الخدمات للدين عن طريق المشايخ الصوفية والنموذج لذلك الشيخ سليمان أفندي النقشبندي الذي كان يعلم القرآن في الطريق علي القطار من استانبول إلى أنقرة ذهابا وإيابا خوفا من الشرطة.

وكذلك كان يتم تعليم الدين والقرآن من قبل مشايخ الصوفة في البيوت بطريقة سرية في المدن والغابات والجبال والأرياف.

ونتيجة الضغوط من قبل المشايخ وأتباع الصوفية وطلب الناس جميعا تم فتح أماكن لتعليم الدين بطرق رسمية وكذلك تم فتح مدارس لتخريج الخطباء والوعاظ , وأخيرا تم فتح كليات متخصصة في التعاليم الاسلامية.

والآن وبحمد الله وفضله أصبح في التعليم العالي (ماجستير ودكتوراه) من كل التخصصات الدينية وغيرها.

2- تربية المجتمع

كان المشايخ الصوفية يعلمون الناس دينهم أثناء المناسبات الدينية و الاجتماعية , أثناء حفلات الزفاف وأثناء صلاة الجنازة والمجالس في الأفراح والأحزان من غير كلأ ولا ملل وكان للمسجد دور مهم في ذلك.

[6] Ülkelerin savunması konusunda bk. Necdet Tosun, "Milli Mücadelelerde Sufilerin Rolü ve Alvarlı Efe Hazretleri", *Uluslararası Hace Muhammed Lütfî (Alvarlı Efe) Sempozyumu*, Erzurum 2013.

ونتيجة لذلك تخرج من مشايخ الصوفة الوعاظ الذين كان لهم أثر كبير في تربية الناس , من هؤلاء المشايخ الشيخ مُحَمَّد زاهد كتكو فقد كان نموذجا يقتدى به , وقد استفاد منه الكثير من الناس على سبيل الذكر رئيس الجمهورية السابق تورغوت أوزال, ورئيس الوزراء نجم الدين أربكان ممن تعلم على يد هذا الشيخ (مُحَمَّد زاهد كتكو ), ومن أمثال هؤلاء الكثيرون .

وخلاصة لكلامي لقد قدم الصوفية في تركيا خدمات في كل المجالات كما سبق وأن ذكرنا.

واستمرت في فترة الجمهورية التركية تواصل تربية الناس رغم كل الضغوطات , ولكن للأسف لم تتمكن من تقديم خدماتها لكل العالم كما ينبغي.

وتكمن أهمية التعليم الصوفي المرتبط بتزكية النفوس وتصفية القلوب فإنه كما يقال أن المجتمع لا يصلح إلا بصلاح الناس وصلاح الناس لا يتم إلا بصلاح القلب كما قال ﷺ :"ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"

لهذا اهتم علماء التصوف بتزكية الأنفس وتصفية القلوب ويكون ذلك :

أولا: باعتراف المريد بعجزه وتقصيره أمام عظمة الخالق سبحانه وتعالى والإقرار والندم على ما اقترفت يداه.

ثانيا : تتم البيعة على يد الشيخ لمريده على التوبة والندم على ما سبق والعزم على عدم العودة الى المعاصي ,وهكذا يظل المريد في متابعة شيخه.

القواعد التي يقوم عليها التعليم الصوفي لا تخرج عن قواعد أهل السنة والجماعة, فبعد البيعة يقوم الشيخ بتعليم المريد الذكر لربط القلب بالله تعالى حتى يكون مطمئنا ,قال تعالى "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب "

وأما الذكر فهو معرفة الله طوال الحياة اليومية وفق سنن الله تعالى فيتم توجيه المريد إلى الطريق المستقيم , ويكون ذلك بالمحافظة على الفرائض والواجبات ثم السنن والآداب .

والآداب هي أساس التعاليم الصوفية القائمة على تزكية النفس وغرس القيم والأخلاق وعدم التعلق بالدنيا ,ثم يتم تعليم المريد حقوق العباد ؛حتى لا يظلم أحدا وأن يحسن معاملة الناس والحث على الأخوة الإسلامية وخاصة الأقارب والجيران ؛ لأن حق الله مبني على المسامحة كما يقال وقد يغفر الله للعبد ذنوبه وإن بلغت عنان السماء ولا يبالي كما ورد في الحديث( **يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك يا ابن آدم إنك لو أتيتني**

**بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة)**, وأما حقوق العباد فمبنية على المشاحة فلا يغفر الله له الا إذا أسقط العبد حقه .

وهكذا تم تعليم الدين في تركيا بتزكية المريد وصلاحه وجعله قدوة لغيره من أبناء المسلمين , ومن خلال هؤلاء الأتباع تم نشر روح الإسلام وتعاليمه في تركيا وفي معظم أقطار العالم .

وجدير بالذكر أن النموذج التركي لم يقتصر على التعليم الخلقي والديني فحسب بل قدم خدمات في كل المجالات بطريقة عملية فقد قدم الخدمات الطبية في المستشفيات للمحتاجين وإنشاء الجمعيات والاوقاف والمدارس والروضات والجامعات التي تهتم بالتعاليم الدينية والعلوم الأخرى , وكذلك تقديم الخدمات عن طريق التلفزيون والراديو والمجلات والصحف وكل الوسائل الإلكترونية الحديثة , وكذا بإنشاء المؤسسات التي تقوم بتأمين الطعام الحلال, وكذلك توصيل الأضاحي والصدقات لكل المسلمين في العالم.

ويتم تقديم جميع هذه الخدمات بتعاون مع إخواننا في الدول التي نقدم لها هذه الخدمات.

ونشير هنا أن من هذه الجمعيات التي وصلت إلى هنا وقدمت بالتعاون معكم بعض المساعدات لبلدكم هي جمعيتا عقبة وبشير.



كل هذه الجمعيات التي تقدم الخدمات داخل وخارج تركيا هي نتيجة للجهود الصوفية؛ لتشجيع الناس على أعمال الخير.

وفي الأخير ندعو الله تعالى أن يرضى عن الجميع , وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.